

اللاذقية

كما تحدثت عنها المؤرخون والجغرافيون والرحالة

هاشم عثمان

هذه المدينة التي طار صيتها في الآفاق من بعد صرخة أبي العلاء المعري : في اللاذقية ضجة ...
هذه المدينة ، تعاقبت عليها أحداث وأزمان • ومر بها قواد عظام وشعراء مفلقون ومؤرخون ورحالة • وأبدوا إعجابهم بها • وقد كثرت الأقوال في ذكر محاسنها • وأهم ما جذب الأنظار إليها ، مينائها ، مبانيها المهندسة المهندمة ، ودير الفاروس •

قال شمس الدين الأنصاري المعروف بشيخ الربوة (ت/ ٧٢٧ هـ) •

«واللاذقية محاطة بالبحر من جهاتها الثلاث وهذه المدينة أشبه بالاسكندرية في بنائها وليس بها ماء جار يسقي أرضها وهي قليلة الشجر ، قديمة البناء ، وبأرضها معدن رخام أبيض أضفر موشى وبها دير الفاروس من أعجب البناء في الديور ، وله يوم في السنة تجتمع النصرى اليه والمينا الذي باللاذقية من أعجب المواني في البحر وأوسعها لا يزال حاملا للسفن الكبار وعليه سلسلة من حديد حاصرة لمراكبه مانعة مراكب العدو» (١) •

وقال أبو الفداء (ت/ ٧٣٢ هـ) •

« وهي بلدة ذات صهاريج وهي على ساحل البحر وبها مينا حسنة مفضلة على غيرها وبها دير مسكون يعرف بالفاروس حسن البناء • قال في العريزي ومدينة اللاذقية جلييلة من أعمال حمص • وهي أجل مدينة بالساحل منعة وعمارة ولها مينا عظيم » (٢) •

ووصفها صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت/ ٧٣٩ هـ) بقوله :

«مدينة عتيقة رومية فيها أبنية مكينة ، وهي بلد حسن في وطاء من الأرض ، وله مرفأ جيد محكم وقلعتان متصلتان على تل مشرف على الربض» (٣) .

ومن المؤرخين ذكرها كل من البلاذري في (فتوح البلدان) وابن الأثير في (الكامل) وابن شداد في (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وشهاب الدين المقدسي في (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) وأحمد بن إبراهيم الحنبلي في (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب) (٠٠٠ وغيرهم ٠٠٠ وغيرهم ٠٠٠٠ .

قال ابن الأثير (ت/٦٣٠ هـ) وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الأبنية وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه .

وقال ابن شداد (ت/٦٣٢ هـ) وهي بلد مليح خفيف على القلب غير مستور وله ميناء مشهور ، وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد .

وقال شهاب الدين المقدسي المعروف بأبي شامة (ت/٦٦٥ هـ) في كتاب عمادي الى سيف الاسلام باليمن عن السلطان قال : « وهذه اللاذقية مدينة واسعة وخطة جامعة معاقلها لاترام وأعلاقتها لا تستام ، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها وأزيدها أعمالا وضياعاً وأزينها وما في البحر مثل مينائها ولا للمراكب الواردة مثل مرساها وهي جنة ٠٠٠ »

وقال الحنبلي (ت/٨٧٦ هـ) وهو بلد كبير له قلعتان متصلتان على تل ، وهي أحسن البلاد وأطيبها ٠٠٠

وأجمل وصف للاذقية وصل إلينا ، ما ذكره العماد الاصفهاني (ت/٥٨٩ هـ) في (الفتح القسي في الفتح القدسي) عندما فتحها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤ هـ . قال : « ورأيتها بلدة واسعة الأفنية ، جامعة الأبنية متناسبة المعاني ، متناسقة المغاني ، قريبة المجاني ، رحبية المواني . في كل دار بستان ، وفي كل قطر بنيان ، أمكنتها مخرمة ، وأروقته مرخمة ، وعقودها محكمة ، ومعالمها معلمة ، ودعائمه منظمة ، ومساكنها مهندسة مهندمة ، وأماكنها ممكنة ، ومحاسنها مبنية ، ومراتبها معينة ، وسقوفها عالية ، وقطوفها دانية ، وأسواقها فضية ، وآفاقها مضية ، ومطالعها مشرقة ، ومرابعها مونقة . وأرجاؤها فسيحة وأهواؤها صحيحة ٠٠٠٠ »

وكان من الطبيعي أن مدينة بجمال اللاذقية ، أن تستأثر باهتمام الرحالة والجغرافيين العرب وغيرهم وأول من أتى على ذكرها ووصفها ، المختار بن الحسن بن عبدون الحكيم أبو الحسن الطبيب البغدادي المعروف بابن بطلان (ت/٤٤٤ هـ) .

وابن بطلان كما يذكر القفطي (ت/٦٤٦ هـ) طبيب منطقي من أهل بغداد يرتزق بصناعة الطب ، خرج عن بغداد الى الجزيرة والموصل وديار بكر ودخل حلب وأقام بها مدة وما حمدها ، وخرج عنها الى مصر وأقام بها مدة واجتمع فيها بابن رضوان المصري

الفيلسوف في وقته وجرت بينهما منافرة أحدثتها المغالبة في المناظرة ، وخرج ابن بطلان عن مصر مغضباً على ابن بدران وورد أنطاكية راجعاً عن مصر فأقام بها وانقطع الى العبادة الى أن توفي بها في شهور سنة أربع وأربعين وأربعمائة .

وقد وجه ابن بطلان الى أبي الحسن هلال الصابي رسالة يصف فيها رحلته الى الرحبة وحلب وانطاكية واللاذقية التي قام بها سنة ٤٤٠ هـ . ومما قاله : « وخرجت من انطاكية الى اللاذقية وهي مدينة يونانية لها ميناء ، وملعب وميدان للخيول مدور وبها بيت كان للاصنام وهو اليوم كنيسة وكان في أول الاسلام مسجداً وهي راكبة البحر وفيها قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه واذان في أوقات الصلوات الخمس . وعادة الروم اذا سمعوا الأذان أن يضربوا الناقوس . وقاضي المسلمين الذي بها من قبل الروم . ومن عجائب هذا البلد أن المحتسب يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم في حلقة وينادي على كل واحدة منهم ويتزايد الفسقة فيهن ليلتها تلك ويؤخذن الى الفنادق التي هي الخانات لسكنى الغرباء بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتماً هو خاتم المطران حجة بيدها من تعقب الوالي لها فانه متى وجد خاطياً مع خاطية بغير ختم المطران ألزمه جناية . وفي البلد من الحبساء والزهاد في الصوامع والجبال كل فاضل يضيق الوقت عن ذكر أحوالهم والألفاظ الصادرة عن صفاء عقولهم وأذهانهم .. » .

وقد نقل ياقوت الحموي في (معجم البلدان) وزكريا بن محمد بن محمود القزويني في (آثار البلاد وأخبار العباد) كلام ابن بطلان ، لكن الاثنان اختلفا في اسمه فبينما يذكره ياقوت باسم ابن فضلان ، يسميه القزويني باسم ابن رطلين ..

وتجدر الإشارة الى أن ياقوت الحموي ينقل عن لسان ابن فضلان انه رأى في اللاذقية سنة ٤٤٦ هـ اعجوبة وذلك أن المحتسب يجمع القحاب الخ ٠٠٠ مع أن ابن بطلان توفي سنة ٤٤٤ هـ كما ذكر القفطي . وليس من المعقول أن يكون ياقوت الحموي قد نقل عن ابن فضلان لأن رحلة ابن فضلان كانت الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ولم يمر باللاذقية .

ومن الذين مروا باللاذقية أيضاً ، ابن بطوطة أثناء رحلته الى المشرق التي قام بها في شهر رجب من عام ٧٢٥ هـ - ١٣٢٥ م .

وابن بطوطة انما قصد اللاذقية لزيارة الولي الصالح عبد المحسن الاسكندري . كما يفهم من قوله : « ثم سافرت الى مدينة اللاذقية . وهي مدينة عتيقة على ساحل البحر ، يزعمون أنها مدينة الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً . وكنت انما قصدتها لزيارة الولي الصالح عبد المحسن الاسكندري . فلما وصلتها وجدته غائباً بالحجاز الشريف ، فلقيت من أصحابه الشيوخ الصالحين سعيدياً البيجاني ويحيى السلوي ، وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء ، أحد فضلاء الشام وكبرائها ، صاحب الصدقات والمكارم .. » .

وأهم ما شاهده ابن بطوطة في اللاذقية وتحدث عنه ، دير الفاروس وميناء المدينة . قال : « وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروس ، وهو أعظم دير بالشام ومصر ،

يسكنه الرهبان ، ويقصده النصارى من الآفاق ، وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه ، وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكبر . وميناء هذه المدينة عليه سلسلة بين برجين ، لا يدخله أحد ولا يخرج منه حتى تحط له السلسلة ، وهو من أحسن المراسي بالشام » .

ولم يذكر ابن بطوطة مدة بقاءه في اللاذقية . كل ما ذكره أنه غادرها الى حصن المرقب ، ثم الى الجبل الأقرع ، ومنه سافر الى جبل لبنان .

وممن مروا باللاذقية أيضاً ، الملك الأشرف قايتباي أثناء الرحلة الرسمية التي قام بها سنة ٨٨٢هـ - ١٤٧٨م في سورية وشملت الصالحية والعريش وغزة وقاقون والناصرية وصفد وبعبك وطرابلس واللاذقية وانطاكية وبغراس (بغرس) وعينتاب وديار بكر ، ووصل قلعة المسلمين ، ثم عاد من ديار بكر بطريق حلب وسرمين وحماة وحمص والنبك ودمشق وسعسع وجسر بنات يعقوب وخان منية وقاقون ثم اتبع نفس الطريق التي جاءها الى القاهرة (٤) .

وقد كتب رحلة قايتباي أبو البقاء بن جيعان وهو أحد الذين رافقوا السلطان وسماها ب (القول المستظرف في رحلة مولانا الملك الأشرف) .

ومما تجدر الإشارة اليه أن ثمة خلافاً حول اسم كاتب رحلة قايتباي . فعلى حين يذكر نقولا زيادة في (الرحالة العرب) ان الذي كتبها هو أبو البقاء بن جيعان . يذكر الدكتور عمر التدمري أن الذي كتبها هو محمد بن ابراهيم الطيبي (٥) يقول : من كتب الرحلات هذا الكتاب الذي يحمل عنوان « القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف » الذي وضعه مؤلفه محمد بن ابراهيم الطيبي وتتبع فيه رحلة الملك الأشرف قايتباي الى فلسطين وبلاد الشام ، في سنة ٨٨٢هـ - ١٤٧٧م مرافقاً للملك الأشرف في رحلته هذه فوضع عنها مصنفاً لطيفاً .

وأياً ما كان الأمر ، فان كاتب رحلة الملك قايتباي ، كتب عما سمعه عن طاحونة في اللاذقية تديرها الريح قال : « ومما سمعنا عنه في اللاذقية طاحونة تديرها الريح ، سواء أكان هبوبها من الشمال أو الشرق أو الغرب على نحو ما هو معروف عند الافرنج واذا دارت يوماً كاملاً ، ليلاً ونهاراً طحنت ١٢ أردباً بالكيل المصري وقد أقام هذه الطاحون رجل من اللاذقية كان الافرنج قد أسروه ، فلما عاد أنشأ هذا الشيء العجيب في بلده . وممن مروا باللاذقية أيضاً وذكروها في رحلاتهم ، الشيخ أحمد بن صالح الأدهمي الطرابلسي المتوفى سنة ١١٥٩هـ - ١٧٤٦م في رحلته المسماة (تحفة الأدب في الرحلة من دمياط الى الشام وحلب) التي قام بها في سنة ١١٥٠هـ - ١٧٣٧م .

وسبب القيام بهذه الرحلة أن الأدهمي كان عند أخيه في مصر ، فحن الى وطنه طرابلس الشام وأحب العودة اليها فركب بحر النيل ثم البحر الملح ومر على حيفا وعكا وصيدا

وبيروت وطرابلس وطنه ومنها أخذ مع رفقته ساحل البحر عن شمالهم الى اللاذقية ومنها
سلكوا طريق الوعر الى ادلب فحلب .

ومعلوماتنا عن هذه الرحلة مستقاة مما كتبه الشيخ عبد القادر المغربي (٦) قال :
والمؤلف مع رفقته لم يسافروا الى حلب من طريق حماه ، وانما أخذوا ساحل البحر عن
شمالهم الى اللاذقية ومنها سلكوا الوعر الى ادلب فحلب . وصلوا جبلة فلم يروا من أهلها
حفاوة فلجأوا الى جامع ابراهيم بن أدهم المشهور ثم دخلوا اللاذقية ضيوفاً على أحمد
الزيادي بتشديد الياء كما يظهر من قوله فيه :

خل الغناء بزینب وسعاد واقصد مرابع أحمد الزیاد

ووصف ما كان من حفاوة هذا الكريم المضياف بهم كما وصف غلمانه وحسنهم
وجمالهم من ذلك قوله في الواحد منهم :

فكان مالکة المفضل أحمداً غذاه لبن الأنس للعواد

ثم وصف حماماً دخله في اللاذقية بأشنع الأوصاف وقال انه سأل عن اسمه فقيل له انه
حمام العواني أو العشور كذا ٠٠٠ ومما وصف به الحمام ان صابونه منتن الروائح
واستطرد من بشاعة هذا الحمام الى ذكر ما قاله الشعراء في الحمامات مدحاً وقبحاً
وافتح ذلك بقوله هو في حمام اللاذقية :

وحمام حوى ما ليس يحصى من الأوساخ والدنس القديم
ينادي من أتى يبغى قراه لك البشري قدمت على الجحيم

وممن زاره في اللاذقية الشيخ عبدالفتاح وقد وصفه بالتقوى والصلاح ٠٠ وصلوا
في جامع الوزير سليمان باشا ودعاهم للضيافة أحمد بن بديع وقال ان من المدعوين اليها
حضرة الشيخ عبدالرحمن أفندي مفتي اللاذقية ولعل عبدالرحمن أفندي هذا هو جد
جد كاتب هذه السطور فقد ترجم له المرادي في تاريخه (سلك الدرر) - ج ٢ ، ص ٣٠٣ -
وقال ان عبدالرحمن أفندي المغربي استقام مفتياً في طرابلس واللاذقية مقدار
خمس وأربعين سنة وكانت وفاته سنة احدى وتسعين ومائة وألف أي بعد زمن من هذه
الرحلة بأربعين سنة ثم قال عنه ما نصه : فجرينا معه في الكلام والمذاكرة وبسطنا له
بساط المفاكهة والمحاضرة ووه لا يطوي عن مرامنا كشحاً . ولا يضرب عن الذي طلبناه
صفحة ٠ بل كلما فتحنا له مسألة فقهية سلك طريق - المطارحة بالكلية . فعلمنا بقرائن
الحال ، انه رجل في غاية الكمال فعندها اعتقدنا محبته وحققنا مع حضرة الوالد
صحبه .

ثم غادروا اللاذقية الى حلب فمروا بقرية البهلولية وهي ملك أحمد الزيادي الذي
كانوا ضيوفه في اللاذقية . ومروا بعقبة السكون (أو السفكون) ووادي القرشية ووصف

وعورة هاتين العقبين وصعوبة السير فيهما قال : « وفي أثناء ذلك الضيق لاح لنا بيت على قارعة الطريق فتقدمنا لطلب البيان فإذا نحن بشيخ وثلاثة نسوان فسألنا عن الناس الأجواد ف قيل لنا أنهم من أهلهم الأكراد . واحدى الثلاثة رعبوبة ذات جمال وغادة قد تسربت برداء الدلال فتقدم اليهن رفيقنا ابن بدران وقال هل ماء الى ابن السبيل الوارد العطشان وصار يطيل النظر اليها . ويلقي من أسرار لواحظه عليها . فاندفعت تسقي الورد وطفقت تطفئ ببرودة كلامها حرارة الأكباد ومرت علينا ونحن في ذلك المكان قافلة كبيرة من الركبان فسألنا الى أين أيها الاخوان . فقالوا لنا من ادلب الى زيارة حضرة السلطان فقلنا لهم مصحوبين بالسلامة ولا زالت العناية بكم ترعى ولا تنسوننا معاشر الاخوان من صالح الدعاء . . . »

ومما يؤسف له أن هذه الرحلة الممتعة ، لم تنشر بعد ، ولم تلق العناية الكافية من الدارسين . وممن مروا باللاذقية أيضاً ، ، البطريرك بولس بطرس مسعد بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للطائفة المارونية أثناء رحلته التي قام بها سنة ١٨٦٦ الى روما ، بطريق البحر .

وسبب هذه الرحلة ، انه في آخر سنة ١٨٦٦ وردت رسائل من الكردينال كازيني رئيس مجمع الفحص عن المشاكل المتعلقة بالمجمع التريدينيني بأمر قداسة الأب الأقدس البابا بيوس التاسع الى جميع البطاركة والجنائقة ورؤساء الأساقفة الكاثوليكين في العالم كله . تنطوي على الدعوة لهم للحضور الى رومة لتعظيم اشهار قداسة الشهداء والمقدمين الآتي ذكرهم وتكريم العيد الأكبر للقديسين الروسليين بطرس وبولس زعيمى الرسل في ختام القرن الثامن عشر بعد استشهادهما . فلما بلغت رسائل الكردينال المومى اليه الى غبطة البطريرك بولس بطرس مسعد بطريرك أنطاكية وسائر المشرق ومطارين الطائفة المارونية قام بالسفر بحراً الى رومة وكان خط سفره كما يلي : من بكركي الى بيروت ومن بيروت الى طرابلس ، ومن طرابلس الى اسكندرونة ، ومن اسكندرونة الى ازمير ، ومن ازمير الى مسينا ، ومن مسينا الى رومة . مروراً بمدن الساحل السوري وهي طرطوس وبانياس واللاذقية .

وقد سجل أخبار هذه الرحلة الخوري يوسف الياس المدبس وسماها ب (سفر الأخبار في سفر الأخبار) وعن اللاذقية قال :

« قد بلغنا ميناء اللاذقية صباح الأحد في الثاني عشر من أيار الساعة ٩ من ساعات الليل ست ساعات ونصف بعد السفر من ميناء طرابلس فأتى لتحية غبطته هناك نائب قونصل دولة افرنسة الموسيو ادلف جفروا ووجوه طائفتنا هناك ولم ينزل أحد من رفقاتنا الى المدينة لقصر مدة المكث هناك واضطراب البحر حينئذ حتى اعتري بعضنا قليل من الدوار وليس في المدينة الا ميناء صغيرة لا تدخلها السفن الكبار وعلى جانبها من الشمال برج داخل في البحر والمدينة في طرف لسان ومن ورائها تل صغير وترى فيها



المواذن من البحر وحوالها أشجار وبساتين تزيد حسن منظرها . وفي المدينة بعض آثار قديمة أخصها قوس نصر يظن أنه أقيم تكريماً لليقيوس وسبتيموس ساويروس وعدد سكانها على ما قيل لنا هناك نحو اثني عشر ألفاً . ومن حاصلاتها التبغ المعروف بأبو ريعة وتبغ وطننا أحسن منه على الأقل نظراً إلى ذوقنا وكان أعظم حاصلاتها قديماً الخمر كما ذكر استرابون .»

ومن الرحلات الطريفة في العصر الحديث رحلة فؤاد أفرايم البستاني المسماة (خمسة أيام في ربوع الشام) أو (رحلة الموزاييك في سيارة بويك) وهي رحلة قصيرة الزمن، تناولت أنحاء سورية بكاملها ساحلية وداخلية من حدود النهر الكبير إلى طرطوس فأرواد إلى اللاذقية ، إلى حلب، إلى المعرة وحماة وحمص رجوعاً إلى دمشق بطريق النبك ودير عطية، وهي رحلة تجمع بين التاريخ والجغرافية والآداب والفنون والعلوم . ويهمننا من هذه الرحلة ما يتعلق باللاذقية ، وبعد أن يتحدث المؤلف عن تاريخ المدينة يقول :

« ومما يذكر من آثارها بناء مربع الأركان يرقى إلى العهد الروماني ، أقيم أما على عهد أنطونيوس ، وأما على عهد سبتيموس ساويروس ، في مفرق الطرق المهمة ، وازدان بنقوش نافرة في بعضها أدوات حربية . وفي الطريق الآخذة من هذا المربع بقايا أعمدة كورنثية رشيقة القوام ، دقيقة الزخارف ، هي كذلك من العهد الروماني .

وأقدم منها المقبرة الشهيرة القائمة شمالي المدينة الغربي ، ممتدة على نحو كيلومتر محفورة قبورها في الصخر على تصاميم متنوعة فاقت كل المعروف من نوعها في البلاد الفينيقية ، على قول رينان ، الذي وصفها وصفاً مطولاً في « البعثة الفينيقية » فذكر قبورها الظاهرة على شكل المربعات ، والمفاور والآبار ، والأقبية وأشار إلى أنه كثيراً ما كان يصادف فيها في زمنه أي في السنة ١٨٦٠ ، أوجه من الذهب ، وتماثيل صغيرة ، ونقود عليها النقوش والكتابات الفينيقية . وكل ما فيها من القبور سابق ، على قول رينان ، للقرن الثالث قبل المسيح .

ومن الآثار القديمة في المدينة كنيسة المعلقة ، وجامع المغربي المتصاعد فوق المنازل حتى أن الناظر من مؤذنته يشرف على مشهد فسيح يمتد من البحر إلى وادي النهر الكبير ، إلى جبل القصيرية ، إلى جبل كاسيوس ولو كان لنا متسع من الوقت لأشرفنا على اللاذقية جميعها من قهوة أبو دردار على تل شرقي .

ويذكر المؤرخون خارج اللاذقية ديراً قديماً اسمه دير الفاروص زاره ابن بطوطة في القرن الرابع عشر فقال فيه : هو أعظم دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان ، ويقصده النصارى من الآفاق . وكل من نزل به من المسلمين ، فالنصارى يضيفونه . وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكبر . أما اليوم فلا يعرف شيء من آثاره . وقد تكون أسسه مدفونة في تل غاروس ، بين اللاذقية وبسنادا ، كما يرجح دوسو .»

★ ★ ★